

لولا الإسلام ما استطاعت اللغة العربية أن تكون لغة الحضارة الإنسانية . ولكن عدم انتشارها ليس عائفا لترسيخ الروح الإسلامي

لدكتور الأستاذ محمود الجومرد

مفتش التربية العام (بغداد)

الإسلام نظم الحياة وشرع لها القوانين وحفظ حقوق الضعفاء وسأوى بين الناس ؛ وأكرم الناس عند الله اتقاهم . كل هذه المثل العليا كانت تستهوي أرباب العقول والقلوب للدخول فيه واعتناق مبادئه .

وبفضل الإسلام ساد العرب وسادت اللغة العربية . وانتشار اللغة العربية كان لسببين : أولهما أن العرب كانوا هم الحكام الغالبين ، ولغة الحاكم دائما وأبدا تسود وتطغى على لغة البلاد المحكومة لعوامل كثيرة - لسنا بصدها الآن - فتعلمها المسلمون وغير المسلمين ، وتحدثوا وكتبوا بها ، ولغة الحاكم تضعف كذلك بضعفه وتنقرض بانقراضه ، وهذا ما حدث للعرب ولغير العرب ، وتلك سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والسبب الثاني هو أن القرآن وما فيه من اعجاز ، والشريعة الإسلامية وما فيها من أحكام ، كل هذا جعل المفكرين من المسلمين غير العرب يسمعون إلى تعلمها ودراستها ، فنبغ منهم خلق كثير في الفقه وقراءات القرآن والنحو والصرف وفقه اللغة والأدب ولو عددها لوجدناهم أكثر عددا وتأييفا وانتاجا من العلماء العرب في كل ناحية من النواحي الدينية واللغوية والأدبية .

ظهر الإسلام في جزيرة العرب ، فنزل الكتاب المقدس قرآنا عربيا مبينا . وشاءت حكمة الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه ليفهموا رسالته وليهتدوا إلى الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم . ودليل ذلك ما جاء في القرآن الكريم (1) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم . والدعوة السماوية لا تفرق بين لغة ولغة ، وفرد وفرد ، ولون ولون ، وجنس وجنس ، ولكنها عامة شاملة ، تبدأ بذرة صغيرة في بيئة تساعد على النمو والحياة ، ثم تكبر وتزهر فتثمر ، وعندئذ لا يقف عندها حد ، ولا تعيقها السدود والقيود .

وهكذا نشأت دعوة الإسلام في بيئة عربية ، حتى إذا ما ترعرعت بدأت تنتشر ، وللعرب فضل نشرها . والإسلام في جوهره قوة واندفاع وقابلية للتغلغل في أعماق الأرواح الطيبة والنفوس المطمئنة والعقول الواجبة ؛ لذلك كانت عوامل انتشاره كامنة في جوهره مناسبة للظروف التي نشأ فيها ؛ وقد كان العالم يومئذ بين وثنية ومجوسية وطبقية ورق وعبودية واستغلال القوي للضعيف وحرمان المرأة من حقوقها وفوضى في الحياة الاقتصادية ؛ إلى آخر الأوضاع التي سادت الشعوب البدائية والحضرية . فلما جاء

1 . سورة إبراهيم الآية (4) .

لذلك فلولو الاسلام ما استطاع العرب ان يجتمعوا ويتوحدوا وينتشر في بقاع الارض ويقضوا على أكبر دولتين في ذلك العهد : دولة الفرس ودولة الروم . ولولا الاسلام ما استطاعت اللغة العربية ان تنتشر وان تكون لغة الحضارة الانسانية قرونا عديدة .

ولكل دعوة انسانية - مهما كانت - أعداء واضداد ، وقد ظهرت جماعة من اليهود وهم (اليسويون) (2) أتباع أبي عيسى الاصبهاني اليهودي، وهؤلاء لا ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم يقولون : انه كان مبعوثا الى العرب خاصة دون العجم ، مستندين الى ان القرءان عربي ، والدعاة هم من العرب ، موهمين العامة بأن بعض الآيات التي وردت في القرءان تشير الى انه عربي وهو للعرب فحسب .

وفي القرءان الكريم تسع عشرة سورة تبدأ بذكر كلمة (الكتاب) وأربع سور تبدأ بذكر كلمة (القرءان) وسورة واحدة تبدأ بذكر كلمة (الفرقان) ، وبين هذه السور ثلاث سور (مكية) وهي : (1) سورة (يوسف) وفيها الآية الثانية (انا انزلناه قرءانا عربيا لقوم يعقلون) ، و (2) سورة (فصلت) وفيها الآية الثانية كتاب فصلت آياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون) و (3) سورة (الزخرف) وفيها الآية الثانية (انا جعلناه قرءانا عربيا لعلمكم تعقلون) . والآيات المكية نزلت قبل الهجرة والدعوة في بدنها ، وهي تنصب - كما يعلم دارسو التفاسير - على الاقناع والتوجيه والعبارة والموعظة ومناقشة المعاندين المكابرين ومخاطبة ذوي العقول من أهل مكة ، ومنها هذه الآيات الثلاث التي تخاطبهم وتقول لهم : ان هذا القرءان واضح وصريح وهو بشير ونذير بلغتكم الواضحة المفهومة وهي العربية .

وقد وردت الآية (42) في سورة (فصلت) قوله تعالى : (ولو جعلناه قرءانا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته الأعجمي وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهم عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) .

وكلمة (أعجمي) هنا تعني : الغامض غير الواضح او الساكت العاجز عن الاجابة ، وهذا ما أورده

المفسرون جميعا . وكلمة (عجم) وهو فعل ثلاثي مجرد تجده في المعاجم اللغوية كلها يدل على الغموض والابهام ، ومعاني الافعال التي تحصل من زيادة (احرف الزيادة) عليه لا تخرج عن هذا المعنى .

فالدعوة الاسلامية دعوة انسانية ليست خاصة بقوم دون قوم وعنصر دون عنصر ، ولولا الاسلام ما انتشرت العربية وكانت لغة الاداب والعلوم ، ولولا الاسلام لاصاب اللغة العربية من الضعف ما اصاب لغات الاقوام الاخرى الذين ضعف حكمهم فانقرضوا .

ولعل كل ما ذكرناه يلخصه عبد الرحمن بن خلدون في (مقدمته) (3) فيقول : (اعلم ان لغة اهل الامصار انما تكون بلسان الامة او الجيل الغالبين عليها او المختطين لها ، ولذلك كانت لغة الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية ، وان كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير اعرابه . والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد لها ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي صلى الله عليه وسلم عربي ، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من اللسان في جميع ممالكها فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا ، هجرت كلها في جميع ممالكها ، لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب ، وهجر الامم لغاتهم والسننهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم وصارت اللسان العجمية دخيلة فيها وغريبة ، ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض احكامه وتغير او اخره وان كان بقي في الدلالة على اصله ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق ، وزناتية والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية ، فسد اللسان العربي لذلك ، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين ، وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا

(2) كتاب (التبصير بالدين وتمييز الفرق الناجية عن فرق الهالكين) . للامام الكبير أبي المظفر

الاسفراييني (ص 122 .

(3) كتاب : مقدمة ابن خلدون ص 266 . المطبعة البهية .

من الامصار ، فلما ملك التتر والمغل بالشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ، ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم ، وذهبت اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتداوية من كلام العرب ، وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك ، وربما بقيت اللغة العربية بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين طلبا لها، فانخفضت بعض الشيء ، واما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له اثر ولا عين ، حتى ان كتب العلوم حارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس ، والله اعلم بالصواب)

فابن خلدون الذي عاش بين سنتي 1332 م - 1406 م ادرك هذه الظاهرة وهي اثر الاسلام في الحفاظ على اللغة العربية ولولاها لاضمحلت وتغيرت ونساع ادبها ونحوها وصرنها .

اما سؤالكم : هل ان الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف وان العكس بالعكس ؟ ؟ . لقد تهيات لي فرصة الذهاب الى تركيا وزرت بعض جوامع ومساجد استانبول (فوجدت الجوامع ايام الجمعة تفض بالمصلين شيبا وشبانا واستمعت الى قراءة القرآن بترتيل رائع وصوت مؤثر رخيـم ، وكان خطيب الجمعة يقرأ بعض آيات من القرآن الكريم ويفسر معانيها باللغة التركية ، والحاضرون ليس بينهم من يحسن اللغة العربية .

اما الاكراد في شمال العراق فهم مسلمون متمسكون باسلامهم كل التمسك ، حتى ان معظم النساء لا يتركن الصلاة ، وقد انتشرت بينهم بعض الطرق الصوفية ، ولهذه الطرق اوقاف وتكايا كلها للعبادة ولاقامة شعائر الدين الاسلامي .

لذا فعدم نشر اللغة العربية ليست عائقا لترسيخ الروح الاسلامي اذا ما اهتمت الدولة المسلمة بتدريس القرآن في مدارسها واعدت معلمي التربية الدينية اعدادا صحيحا وعنيت برجال الدين .

والعرب اذا ما ارادوا خدمة الدين الاسلامي واللغة العربية فعليهم ان ياتوا بشباب المسلمين من الاقوام المختلفة وبربهم في المراكز الدينية الاسلامية المنتشرة في البلاد العربية ويعدهم اعدادا صحيحا سليما ، وبذلك نضمن تفقهم في الدين ونشره وتشبيته في نفوس الاقوام المختلفة ، ونضمن كذلك احترام اللغة العربية وانتشارها بينهم .

اما السؤال الآخر : وهو مدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات واللغات الاقليمية في الاقطار الاسلامية غير العربية او لدى الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية والاسيوية ؟؟ فنحن نعتقد بان هذا التأثير محدد وقاصر على الكلمات الواردة في القرآن والشريعة الاسلامية وليس لها مقابل في لغات الاقوام غير العربية ، وعدد هذه الكلمات قليل ، وليس على القليل قياس ! .

